السفينة في المعجمية العربية
قراءة في آفاق القدرة والمرونة اللغوية

بقلم: د. خالد فهمي إبراهيم❖

يمثّل مشكل العلاقة بين العربية والمنجز الحضاري مفردة من مفردات البحث اللساني والمعجمي، يقع في الصميم من اهتماماته ومشاغله.

ومثل سلاحًا من طرفي المتحيّزين لكل فئة، من المنتصرين لضرورة تعريب العلوم، ومن المخاصمين للتعريب، المدافعين عن استيراد العلوم بوعائها اللساني الذي أنتجها!

وفي هذا البحث محاولة لفحص أبعاد القدرة والمرونة التي منحتها العربية لواحد من أظهر تجليات الحضارة المادية الجديدة على الحياة العربية، وهو حقل السفينة وألفاظه ومصطلحاته في اللسان العربي.

وسعيًا إلى هذه الغاية يعالج هذا البحث المطالب التالية:

١- مدخل: البحر وجهة جديدة للعربي المسلم!

٢- السفينة في المعجم العربي: المدوّنة والعلاقات المعرفية:

(٢/١) المدوّنة (معجمات السفينة في العربية).

(٢/٢) علاقات السفينة المعرفية.

٣- مصطلح السفينة: قراءة في نتائج التأصيل اللغوي.

٤- مصطلح السفينة: أنماطه ودلالاته.

٥- آفاق استثمار البحث المعجمي في مصطلح السفينة.

إنّ أمثال هذه البحوث المعجمية تعي وضعها الذي يراوح مناطق البحث المعجمي، وعلم المصطلحات والسياسات اللغوية، وتاريخ اللغة.

وهو نوع من بحوث التحيز بالمعنى المنهجي الذي يتعاطف مع منجز هذه الحضارة، التي فجرها الكتاب العزيز!

وهو كذلك نوع من بحوث المعجمية التطبيقية والنظرية معًا الذي يمكن بوساطته فحص بعض الإشكالات التاريخية في المجال المعجمي، والإسهام في اتخاذ قرار سلبي أو إيجابي بشأنها، ولا سيما في ظل استمرار الجدل الدائر حول كثير منها إلى اليوم في الأوساط المتخاصمة فكريًّا/ أو أيدلوجيًّا في الأساس.

لقد بات واضحًا أنّ "اللغة تقع في قلب هذا الصراع"(١) على هوية مصر على الأقل، وهو ما قد يكون صحيحًا في كثير غيرها من بلدان المنطقة العربية.

ولعل اختيار هذه المناطق الجديدة من المعجمية بأبعادها النظرية (التاريخية) والتطبيقية من جانب والمشتبكة بعلم المصطلحات من جانب آخر تكون طريقًا واضحة وناجزة لفحص كثير من المشكلات العالقة في هذا الباب.



(١) مدخل: البحر وجهة جديدة للعربي المسلم!

(١/١) خطاب التأسيس.

معلوم جيّدًا أنّ القرآن الكريم مثّل نقطة تحوّل جوهري في تكوين العقل العربي في رؤية الكون والحياة من جوانبها جميعًا.

لقد جاء ذكر القرآن الكريم للبحر متنوّع التصريف، فكانت قائمة استخدامه لتصريفاته كما يلي[٢]:

أ- بحر/ بالإفراد في ثلاث وثلاثين مرة (٣٣ مرة) (نكرة/ ومعرفة).

ب- بحران/ بالتثنية في خمس مرات (٥ مرات) (نكرة/ ومعرفة).

ج- بحار/ أبحر بالجمع ثلاث مرات (٣مرات) (٢ بحار/ ١ أبحر).

أي أنّ مجموع ما جاء هو إحدى وأربعون مرة (٤١ مرة)، وقد أحاطت بها العلامات التالية:

أولاً- توزع استخدامها على القرآن المكي والمدني.

ثانيًا- توزع استخدامها موضوعيًّا، بمعنى استخدامها في سياق الإخبار، والقصص، وفي سياق التذكير بنعمة الله، وفضله، وقدرته سبحانه، وفي سياق المستقبل تحذيرًا من وعيد الله تعالى.

ثالثًا- تنوع وظائف استخدامه، بمعنى أنّ الذِّكر الحكيم استخدم تصاريف البحر، إفرادًا وتثنيةً وجمعًا لتحقيق وظائف متنوعة من مثل:

أ- إثبات صدق الرسالة؛ الإنباء عن الغيب الماضي

ب- الدعوة إلى توحيد الله تعالى بالدلالة على براهين قدرته في البحار، وما يسيره فيها، وما يخرجه منها.

ج- التنويع في دعوة المخاطبين بالترغيب، والترهيب والإقناع.

د- إثبات صدق النبي ﷺ في نبوته.

هـ- فتح آفاق للأمّة للنهوض الحضاري بتوظيفهم للبحر، طريقًا للنقل والمواصلات، ومصدرًا للغذاء والثروة، ومجالاً للتصنيع والطاقة... إلخ.

ثم إنّ طائفة من هذه الآيات التي جاءت في الكتاب العزيز وردت مقترنة بذكر ما يدل على السفينة، فقد جاء البحر مقترنًا بما يلي:

أولاً- البحر/ الجواري.

ثانيًا- البحر/ السفينة.

ثالثًا- البحر/ الفلك.

وإليك قائمة هذه الاستخدامات:

أولاً- البحر/ الفلك (=السفن).

وقد جاء الاقتران بين البحر والفلك أكثر علاقات الاقتران الثلاثة تكرارًا في المواضع التالية:

- سورة البقرة ٢/١٦٤: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾.

- سورة إبراهيم ١٤/٣٢: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾.

- سورة الإسراء ١٧/٦٦: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾.

- سورة الحج ٦٥/٢٢ : (سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ).

- سورة لقمان ٣١/٣١: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ).

ثانيًا- البحر/ الجواري (السفن).

وقد جاء الاقتران بين البحر والجواري في المرتبة الثانية من جهة الاستخدام كما يلي:

- سورة الشورى ٣٢/٤٢ : (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي البَحْرِ كَالأَعْلاَمِ).
- سورة الرحمن ٢٤/٥٥ : (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي البَحْرِ كَالأَعْلاَمِ).

ثالثًا- البحر/ السفينة.

جاءت العلاقة (البحر/ السفينة) في المرتبة الأخيرة إحصائيًّا، في موضع واحد هو قوله تعالى:

- سورة الكهف ٧٩/١٨: (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ).

وثمة علاقة أخرى بين البحر/ والسفينة، لكنها علاقة تضمينية؛ أي لم يصرّح فيها بلفظة (الفلك/ أو الجواري/ أو السفينة)، ولكنها متضمنة في سياق الآيات في المواضع التالية:

- سورة المائدة ٩٦/٥ : (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ) ولا يكون الصيد بغير مركب.

- سورة الأنعام ٦/٦٣ : ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ولا تكون النجاة من ظلمات البحر إلا بعد ركوبه.

- سورة الأنعام ٦/٩٧ : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.

- سورة يونس١٠/٢٢ : ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ والسير في البحر يلزمه سفينة!

- سورة النحل ١٦/١٤ : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ ولا يكون الأكل من لحم البحر إلا بعد الصيد، و لا يكون إلا بعد ركوبه.

ففي هذه المواضع جميعًا قرائن تفرض حضور الفُلك أو الجواري أو السفينة بما هي أدوات السير والصيد في البحر.

إنّ هذا الاستخدام لأنواع السفن المتضمنة في الآيات والمستنبطة بحكم تنوّع الأوصاف والقرائن اللفظية والعقلية المطيفة بها قاطعة في أنّ العرب كانوا على معرفة بالبحر، وركوبه وسفنه ولو تاريخيًّا!

وهو الأمر الذي استثمره الكتاب العزيز في اتجاهات كثيرة خادمة لفكرته الدينية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية الحضارية.

(١/٢)

من جانب آخر فإنّ فحص ما ورد في السنة المشرفة مما يتعلق بالبحر يلمس نوعًا من اتساع آفاق النظر إليه في وجهة العقل العربي المسلم؛ فقد

وقف الفقهاء أمام مجموعة الأحاديث واستنبطوا منها أبوابًا كاملة تفضي إلى هذا الذي نذهب إليه ومما يمكن التنبّه إليه في هذا السياق ما يلي:

أولاً- حِلّ ما يلقيه البحر من طعام.

ثانيًا- إحلال غزو البحر، وما يتعلّق به من شهيد البحر، وثوابه.

ثالثًا- شيوع النظر إليه بابًا لتقدير عظمة الله تعالى، واستطالة قدرته سبحانه.

إنّ مراجعة السنّة في هذه المحاور مهم جدًّا؛ لتكملة بيان ما نفذ منها ومن الكتاب العزيز إلى بنية الثقافة العربية، واستقر فيها من النظر إلى البحر وما نشأ بسبب من صناعات حضارية تتعلق بمعجم السفينة.

وسنعتمد ما ورد في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، لفنسنك(٣) في بيان أمثلة الأحاديث الكاشفة عن هذه المحاور:

أولاً- البحر/ الطعام:

"البحر الطهور ماؤه، الحِلّ ميتته".

"كانا لا يريان بما لفظ البحر بأسًا".

ويستفاد من مثلها حِلُّ طعام صيد البحر، وما تلقيه من أرزاقها، وأسماكها.

ثانيًا- البحر/ الجهاد:

"لا يركبون ثبج هذا البحر".

"فغزا في البحر فحملها معه".

"غزوة في البحر مثل عشر غزوات في البر".

"المائد في البحر كالمتشمط في دمه في البر".

ثالثًا– البحر/ دليل عظمة الله وقدرته:

"حطّت عنه خطاياه، وإن كان مثل زبد البحر".

"أمر الله البحر فجمع ما فيه".

"حلف بالله الذي فلق البحر لموسى".

ويستفاد منها تقدير الصفات الإلهية من باب هيمنته سبحانه على البحر في التصور الثقافي العربي المدعوم بالأخبار والتاريخ والمشاهدات.

وتتشعب العلاقات التي تدخل السفينة والفلك طرفًا بدرجة أكبر مما هي عليه في العلاقات التي ظهرت من فحص آيات الكتاب العزيز، وهو أمر منطقي له ما يسوغه؛ لأنّ السنّة المشرّفة هي النص المفسِّر، الموضِّح للذِّكر الحكيم.

وفحص هذه العلاقات كاشفة عن أبعاد الوجهة الجديدة التي نزلت في العقل المسلم بسبب روح الإسلام، ومما يظهر من نصوص الأحاديث ما يلي(٤):

أ- السفينة/ النجاة: "السفينة نجاة".

ب- السفينة/ زيادة الأجر: "لكم أنتم أهل السفينة هجرتان".

ج- السفينة/ الحضارة: "إنها يطلى بها السفن".

"كأنه جمالات صفر حياة السفن".

د- السفينة/ التجارة والنقل: "أن ركبنا في سفينة بحرية".

"حمل معه في سفينة".

ومن هذه الحقول الأربعة الفرعية يظهر أنّ السفينة دخلت في علاقات كاشفة عن حضور ثقافي وحضاري في بنية العقل العربي، زاد وتشعب بفضل تفاعله مع بقية الخصائص العمرانية والحضارية التي مثّلت جزءًا جوهريًّا من مقاصد الشريعة الإسلامية.

إنّ أيّ دراسة لفيلولوجيا السفينة في الثقافة والمعجمية العربية، لا يمكن تجاوز ما أحلّه الكتاب العزيز والسنّة المشرّفة في بنيتهما بأيّ حال من الأحوال. وهذه النتيجة ظاهرة جدًّا من مجموع ما تكشّف من تحليل العلاقات التي دخلت فيها السفينة في هذين النصين الجليلين معًا.

صحيح أنّ المتأمّل لا يعدم أمثلة لحضور البحر/ السفينة في مدوّنة النصوص العربية القديمة الجاهلية، لكن هذا الحضور لا يمكن أن يقارن بما أحدثه التصور الإسلامي من خلال الكتاب العزيز والأحاديث النبوية المشرّفة في العقل العربي من تمدّد لهذا الحضور، أصاب مناطق واسعة جدًّا وعمّقها، لدرجة وصلت بالحضارة الإسلامية في زمان ما أن يكونوا سادة البحار بلا منازع على الرغم من عراقة كثير من الأمم الأخرى في علاقتها بالبحر/ السفينة في التاريخ الإنساني.

إنّ التذرع بفيلولوجيا البحر وعلائقه وسيلة معروفة في كثير من المجالات المعرفية الاجتماعية وغيرها على ما نرى مثلاً في صنيع بريدراج ماتفيسجيفتش عندما لاذ بالمعجم ليكتب جزءًا من تاريخ البحر المتوسط في تراتيل متوسطية(٥).

(٢) السفينة في المعجم العربي: المدوّنة والعلاقات المعرفية.

اتضح من تحليل حضور البحر/ السفينة في خطاب التأسيس أنّ هذا الحضور يتجاوز الحدود الأولية، إلى عدد من العلاقات المهمة في بنية الثقافة العربية، وأتاح لها الكتاب العزيز والسنّة المشرّفة تمدّدًا وتشعّبًا ظاهرين.

وفي هذه النقطة من البحث نقف أمام: السفينة في المعجمية العربية مستهدفين الكشف عن حدود المدوّنة، وأشكال العناية بها.

(١/٢) السفينة في المعجم العربي: المدوّنة.

ومقصودنا بالمدوّنة هنا الأشكال المادية التي ظهر من خلالها العناية بجمع ألفاظ السفينة في العربية، وهي ما نرى أنها صالحة لأن تتوزع على مرحلتين، بمفهوم التصنيف، لا بمفهوم المرحلة التاريخية؛ هما:

(١/١/٢) السفينة في المعجم العربي: مدوّنة ما قبل الاستقلال.

(٢/١/٢) السفينة في المعجم العربي: مدوّنة الاستقلال (معجمات السفينة).

لقد كان مدهشًا تغطية مساحة كبيرة من ألفاظ معجم السفينة في مصادر لغوية وغير لغوية في تاريخ التأليف في الحضارة العربية بتأثير الإسلام.

(١/١/٢) السفينة في المعجم العربي: مدوّنة ما قبل الاستقلال.

في هذه النقطة نحاول أن نثبت أنّ المعجمية العربية -في تاريخ متقدم- تنبّهت إلى جدارة السفينة، بما هي موضوع، بالعناية، والرعاية وربما كان كافيًا في هذا السياق التدليل بعدد قليل من الأمثلة الكاشفة.

أولاً- ولعل الذهاب إلى معاجم الموضوعات يكون نقطة تمثيل صالحة لما نقرره من علامات هذه العناية التي منحتها المعجمية العربية قديمًا لألفاظ هذا الحقل، وفي هذا الصدد يقابلنا أهم معجمات هذا النوع، وهو:

- "**المخصص**" لعلي بن إسماعيل بن سيده الأندلسي، المتوفى سنة ٤٥٨هـ، إذ أفرد فصلاً (حقلاً) للسفينة (ق٣) ١٠/٢٣-٢٩؛ وفصلاً (حقلاً) آخر بعده بعنوان: ما يشبه السفينة (ق٣) ١/٢٩؛ ومن الجديد بالذكر أنهما جاءا تاليين لباب البحر ونعوته وجزره وأسماء ساحله وما فيه من الحيتان والملاحظة البيئية التي تلوح من تحليل هذا الترتيب هي وضوح العلاقة الدلالية، والمعرفية بين البحر/ والسفينة؛ في تطبيقات المعجمية العربية، كما نرى في هذا النموذج.

وتحليل مادة هذين الحقلين يلحظ أنّ المعجمي العربي كان واعيًا بمجموعة الحقول الفرعية المنضوية تحت حقل السفينة، وقد ضم ما يلي:

أ- ألفاظ السفينة (حقل علوي).

ب- ألفاظ أسماء أجزاء السفينة، ومكوناتها.

ج- ألفاظ أسماء الملاّحين العاملين على السفينة.

د- ألفاظ أسماء ما يلحق بالسفن مما يجري في البحر مما هو دون السفينة.

هـ- ألفاظ أسماء بعض الأدوات المستعملة في صناعة السفينة.

كما يكشف تحليل شروح المداخل أمورًا مهمة جدًّا تختص بعدد من المجالات الحضارية من مثل:

أ- صناعة السفن (الإجراءات العملية).

ب- قواعد تصنيع السفن.

ج- مهارات الصنّاع، وما تحصل لهم من تجارب السنين في البحر.

د- مراكز تصنيع السفن في الجزيرة العربية، من خلال تسمية كثير من السفن بنسبتها إلى أماكن صناعتها، كالعدولية؛ المنسوبة إلى: عدولى بالبحرين.

هـ- تنوّع السفن تبعًا لتنوّع الوظائف (كالصيد والقتال... إلخ).

و- تنوّع السفن تبعًا للأوضاع الاقتصادية في الأقاليم البحرية (سفن/ وأشباه سفن).

ز- بعض العادات الاجتماعية والتاريخية المبثوثة في بعض التعليقات على معنى بعض المداخل.

إنّ تحليل ما أورده ابن سيده في "**المخصص**" كاشف عن بعض عناية قديمة بمعجمية السفينة، ظهرت في إطار تطبيقات المعجم العامّ، وهو الأمر الذي ينبئ عن أهمية معالجته في هذا المجال.

ثانيًا- ولعل التفكير المنطقي يفرض علينا فحص مجالين معرفيين يغلب الظن على عنايتهما بمعجمية السفينة بوجه خاص، وهما:

أ- مجال الكتابة في الرحلات (أدب الرحلات).

ب- مجال الكتابة في التاريخ (تاريخ الشعوب والأحداث المرتبطة بالبحر).

ذلك أنّ هذين المجالين يظهران عناية خاصة بسبب طبيعة البناء المعرفي لهما وهو باب واسع يحتاج نوع تتبّع، وجمع وفحص وتحليل.

وتعدّ المقدمة التي صنعها: هانس كندرمان عن مصادر دراسة معجمية السفينة في كتابه "**مصطلح السفينة عند العرب**" خطوة جيّدة في هذا الباب[٦].

ومن المصادر المهمة التي أشار إليها كندرمان: كتاب "**قوانين الدواوين**" لابن مماتي المتوفى ٦٠٦هـ.

وقد جاءت عناية ابن مماتي بقائمة أسماء السفن التي ذكرها، بسبب ما أراده الرجل لكتابه أن يكون في التاريخ الإداري والزراعي للدولة المصرية في عصره (الدولة الأيوبية)، فصنع فصلاً للأسطول المنصور (ص٣٣٩)، يقول في مفتتحه "وهو الآن يجري في جيش المصريين، وسنذكر... أسماء مراكبه"[٧].

صحيح أنّ القائمة التي ذكرها الوزير الأسعد بن مماتي تعدّ من القوائم المعجمية القصيرة، لكنها مهمة من أكثر من جانب:

أ- هي في سياق الغرض الذي سبقت من أجله في تحليل تكوين الجيش المصرى في مرحلة تاريخية قديمة.

ب- هي مهمة لأنها تختص بنوع بعينه من السفن، هي السفن الحربية.

ج- هي مهمة لأنها تكشف عن وظائف مختلفة للسفن في المجال الحربي، فمنها سفن للمقذوفات، ومنها سفن لحمل الدواب والخيل، ومنها سفن لحمل المؤن، والأزداد... إلخ.

وقد ضمت قائمة ابن مماتى ثمانية مداخل (=أسماء سفن)، وكانت طريقة شرحها معتمدة على بيان وظائفها؛ أي أنّ السمات الدلالية الفارقة التي تميّز كل سفينة عن غيرها ظهر من بيان أمرين هما:

أ- وظيفة نوع كل سفينة.

ب- تكوين السفينة، وحجمها.

من هذين النموذجين يتضح لنا أنّ التراث العربي المعجمي العامّ وغيره من مجالات أخرى يضم ألفاظًا كثيرة جدًّا للسفينة، تحتاج إلى التتبع، والجمع، والتنظيم، والتحليل، وهي صالحة لأن تخدم قطاعات علمية كثيرة تتعلق بتاريخ الحضارة العربية.

ولن تكون الثمرة المرجوة مقيدة إلا بعد توافر البحث على دراسة مصادر أسماء السفينة في اللسان العربي، وجمعها، وتدوين الملاحظات اللغوية (التأصيلية) والتاريخية، والحضارية عليها.

وبحث المصادر هذه مهم جدًّا، ما يزال يشهد قصورًا ظاهرًا في الأدبيات التي عالجت الموضوع إلى الآن!

(٢/١/٢) السفينة في المعجم العربي: مدوّنة الاستقلال (المعجمات المستقلة).

أظهرت دراسة مصادر أسماء السفن في العربية تنوع مجالاتها المعرفية، وقد مر في مطلب سابق بيان ملامح العناية بمعجمية السفينة في العربية في منطقتين معرفيتين. وأشرنا إلى عدد آخر من المظان التي يمكن أن تمثّل منطقة خصيبة لمن يروم دراسة ألفاظ السفينة في العربية وأسمائها.

وقد تأخر استقلال التصنيف في أسماء السفن في العربية حتى العصر الحديث وقد سبق التقليد الاستشراقي التقليد العربي في العناية بالتصنيف المستقل في معجمية السفينة في الحضارة العربية الإسلامية.

وقد وصلت إلينا المصنّفات المعجمية التالية في هذا الباب:

أولاً– في التقاليد الاستشراقية:

– ١٦٣٤م /هانس كندرمان= مصطلح السفينة عند العرب.

وعنوانه بالألمانية:

Schiff im Arabischen untersuchung uber vorkommen und Bedeutung der Termini, Zwickau,١٩٣٤.

وترجمته كما نقلها الصديق الدكتور/ رضا الدقيقي: السفينة في البحث العربي: دراسة عن دلالة المصطلح ومعناه، دار النشر: تسفيكا، بدن ١٩٣٤م.

ثانيًا– في التقاليد العربية:

أ– ١٩٦٧م/ الدكتور جمال الدين الشيال=

«معجم السفن العربية، وهو مجموعة بطاقات وجزازات مخطوطة، كانت محفوظة بمكتب سكرتارية السيد وكيل (نائب رئيس) جامعة الإسكندرية للبحوث والدراسات العليا»(٨) وقد ضمّنها درويش النخيلي كتابه عن السفن الإسلامية على حروف المعجم.

ب– ١٩٧٤م/ الأستاذ درويش النخيلي/=

السفن الإسلامية على حروف المعجم، طبعة جامعة الإسكندرية، سنة ١٩٧٤م.

وفي ما يلي دراسة للبنيتين الكبرى والصغرى لهذين المعجمين؛ معجم كندرمان ومعجم النخيلي:

(١/٢/٢) ١٩٣٤م/هانس كندرمان= مصطلح السفينة عند العرب.

صدر هذا المعجم أولاً بالألمانية ١٩٣٤م، ثم ترجمه: نجم عبد الله مصطفى، ونشره المجمع الثقافي، بأبوظبي، بدولة الإمارات العربية المتحدة، سنة ٢٠٠٢م، يقول في تقييمه درويش النخيلي في مقدمة معجمه عن السفن الإسلامية: "وتجدر الإشارة هنا إلى واحد من الأعمال الممتازة التي أخرجها المستشرق الألماني كندرمان Kindermann وهو كتابه: Schiffim Arabischen فهو يعدّ من أهم -إن لم يكن أعظم- المراجع الحديثة التي يعوّل عليها كل من يكتب في هذا الموضوع".

وفحص هذا العمل يكشف عن بنائه المكوّن من ثلاثة أقسام هي:

أولاً- البنية الكبرى:

أ- المقدمة.

ب- المعجم (مرتب ألفبائيًّا).

ج- الملاحق والكشافات = (الفهارس).

وفي ما يلي تحليل لما ورد في هذه الأقسام الثلاثة:

(أ)

المقدمة

ضمّت مقدمة هذا العمل كلمة عن أهمية هذا النوع من الأعمال المعجمية

وكلمة عن المحاولات الغربية المتماسة مع موضوع المعجم، من مثل أعمال:

- برنو ---- البحر.

- بارتولد ----- القرآن والبحر.

وغير ذلك من مقالات مختصة بتاريخ الملاحة عند العرب، لفستنفيلد وجويدي وغيرهما. ويشير إلى أهمية دراسات التعريب التي اعتنت بالألفاظ الأعجمية في العربية.

ثم بيّن أنه رتّب مداخل معجمه وفق الترتيب الألفبائي، وإن لم يهمل استثمار العلاقات الاشتقاقية التي بين الكلمات في بعض الأحيان (ص٩)، وقد حرص على مساعدة المستعمل الأجنبي، فنقل له النطق بالتمثيل الصوتي أو الكتابة الصوتية.

وفي إطار المقدمة خصص كندرمان مقالة أو مطلبًا لمراجع الدراسة، وقف فيها وقفة طويلة متأنية فاحصة، جمع فيها المحاولات التي سبقته، واعتنت بأسماء السفينة في اللسان العربي، وكان مما أشار إليه من الأعمال الغربية:

- مقالة فستنفيلد ١٨٨٠م: أسماء السفن في العربية، وكشف عن مصادره في بناء هذه المقالة (ص١١).

- مقالة جلدمايستر ١٨٨٢م: حول السفن العربية، وهي تكملة لما سبقها.

- دي خويه، وقد اعتمد على المقدسي في صناعة قائمته.

أمّا المصادر العربية فأشار إلى ما يلي:

ابن سيده سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٦م في كتابه "**المخصص**"، وقد مرّ هنا التوقف أمام هذا المصدر.

ابن مماتي سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م في كتابه "**قوانين الدواوين**" وقد مرّ هنا التوقف أمام هذا المصدر.

ثم ختم المقدمة بمقالة بعنوان: طريقة البحث وخطته، وقرر أنّ «الفكرة الرئيسة عند ترتيب مجموعة الكلمات التي تدل على السفينة ليس فقط جمعها من مراجعها، بل إعطاء فكرة عن تطور معناها التاريخي».

ويقول في سبيل بيان هذا (ص١٩): «عملت على الاستفادة الكاملة للكلمة لمعرفة تحديداتها من حيث المعنى... إذ إنه من المهم معرفة زمن ومكان ظهور كل نوع من السفن، وكيفية صنعها، ومظهرها، ومن قام بصنعها، لأيّ غرض».

وهذا الأمر يتجاوز بكتابه حدود المعجم بمفهومه التقليدي إلى نمط من الأعمال المعجمية الموسوعية التاريخية معًا.

ويعلل ذلك بقوله: «إنّ عدم العناية بهذه المسائل البديهية يؤدِّي طبيعيًّا إلى عدم الالتفات إلى تطور مفهوم الكلمة، وبالتالي معناها، وكذلك علاقة المعاني المختلفة مع بعضها الآخر التي جمعها مجرد معجم ما عن طريق الصدفة».

ومن هنا يظهر أنّ خطة بحث كندرمان كما تظهر من مقدمته تدور حول العناية بما يلي:

١- شرح معاني ألفاظ السفن.

٢- بيان المعلومات التاريخية حول السفن.

٣- بيان المعلومات الموسوعية حول السفن.

٤- بيان العلاقات الاشتقاقية التي تتعلق بأسماء السفن في العربية.

(ب)

نص المعجم

جاء نص المعجم، أو جسمه بعد المقدمة، ورتّبت أسماء السفن فيه ترتيبًا ألفبائيًّا مشرقيًّا، وفق شكل الكلمة النهائي المستعمل من غير ردّ إلى الجذور.

ولكن المعجم يستطرد عندما تترابط مجموعة نوعية من السفن دلاليًّا بالاسم الذي يعلّق عليه؛ ففي تعريفه للمدخل (أسطول) استطرد فذكر أفروطة/ ورمادة/ وعمارة/ ودوننما/ وشون/ ومراكب.

والعجيب أن لا يذكرها في مظانها من الترتيب الألفبائي!

وهذا أمر غير تيسيري، ويفوّت النفع على من لا يدرك العلاقات الدلالية فيما بينها، وكان من المهم ذكرها في مظانها مع الإحالة على المواضع التي ورد فيها التعليق عليها!

وقد تكرر من كندرمان ذلك في المداخل التالية:

- بركة (براكية/ وبرشة/ وباكوا).
- بطيل (مطيال/ بنيل).
- جنك (زنك).

- جلابية (عسبية/ جسارية/ الكشترى).
- حرمية (مركب حمال).
- خولة (رباب).
- دقل (سكان).
- دونى (دنجى/ دانوق).
- ذهبية (دهبية).
- زواريق (زراريق).

وثمة مواضع أخرى ترد تصديقًا لهذا الملحظ.

ومن جانب آخر شكلي ولكنه مهم، فقد وقع سهو في تحرير المداخل التي التزم فيها محرر المعجم ومحرر الترجمة كتابة المداخل بحجم طباعي غليظ، فقد جاءت مجموعة من المداخل مكتوبة بخط عادي من دون تغليظ، وهو ما قد يفوت أيضًا بعض المنافع، نرى ذلك في المداخل التالية (ساعية ص١٢٣).

(ج)

الملاحق

بعد الانتهاء من المعجم ألحق كندرمان مجموعة من الملاحق الإضافية، وهو تقليد استشراقي عريق، تمدّد في ثلاثة اتجاهات هي:

أ- اتجاه الكتب المحققة (النشرات النقدية للنصوص التراثية).

ب- اتجاه ترجمة النصوص التراثية.

ج- اتجاه التصنيف المعجمي المختص.

وقد ضمت هذه الملاحق مجموعة من التعليقات والمباحث القصيرة حول ما يلي:

أولاً- عدد من المداخل من مثل: الأسطول/ والسفينة/ وسنبوك/ وعربة/ وغراب/ وما شوه، وهي تعليقات تتعلق في الغالب بمعلومات تأصيلية وتاريخية.

ثانيًا- محاولة تسعى للتفريق بين الكلمات الأعجمية والكلمات العربية من خلال الفحص التاريخي، والحضاري والتأصيل اللغوي المعتمد على معطيات الصوتيات والأبنية.

(د)

الكشافات = (الفهارس)

ختم كندرمان كتابه (على ما يظهر من الترجمة) بكشافين (أو فهرسين) اثنين فقط هما:

أ- كشاف= (فهرس الكلمات).

ب- كشاف= (فهرس المراجع).

والكشاف الأول الخاص بالكلمات مهم جدًّا للمستعمل المعاصر من أكثر من جانب، إذ يعين في يسر على الوصول إلى الكلمة التي يمكن أن تمثّل شغلاً للباحثين، فضلاً عن أنها تعالج النقص الحاصل منه جهة الاستطراد بإيراد ألفاظ في غير مظانها من الترتيب، نظرًا لورودها مع غيرها لعلاقات دلالية تجمعها معها.

(للبحث صلة)

الهوامش:

* كلية الآداب- جامعة المنوفية- المنوفية- ج. م. ع.

(١) **لغة مقدسة وناس عاديون: معضلات الثقافة والسياسية في مصر**، لنيلوفر جائري، ترجمة: عيدراوس ومراجعة مديحة دوس، المركز القومي للترجمة، القاهرة، سنة ٢٠١١م. (١٦٩٢)، ص٢٥٨.

(٢) انظر: **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، لمحمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص١٤٠.

(٣) انظر: **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي**، لفنسنك، مكتبة بريل، مدينة ليدن، سنة ١٩٣٦م، (١/ ١٤٤ وما بعدها).

(٤) انظر: **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي** (٢/ ٤٧٥) و(٣/ ١٩٨).

(٥) انظر: **تراتيل متوسطية**، لبريدراج ماتفيجيفتش، ترجمة عبد الجليل ناظم، وسعيد الحفصالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م (ص١٣٩)؛ حيث يقول: "يمكننا الكشف عن مجموعة من الأشياء والكلمات ووجهات النظر والمواقف وإن أدبيات الملاحة تعرف كثيرًا من أنواع المصطلحات المرتبطة بمختلف الميادين، وكل من يحاول الكتابة عن البحر المتوسط يلتجئ إليها"! ويقرر أنّ معجم البحر والملاحة أصابه ما يصيب غيره من التطور الدلالي؛ فيقول (١٩٤ في فصل المعجم من الكتاب): "لقد غيّر الزمن معنى كثير من الكلمات المتعلقة بالملاحة والبحر، كما غيّر كثيرًا من الكلمات الأخرى"!

(٦) انظر: **مصطلح السفينة عند العرب**، لهانس كندرمان، ترجمة نجم عبد الله مصطفى، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ١٤٣٢هـ/٢٠٠٢م، ص١١-١٨.

(٧) **كتاب قوانين الدواوين**، لابن مماتي، تحقيق: الدكتور عزيز سوريال عطية، وإشراف الأمير عمر طوسون، مصورة مكتبة مدبولي، القاهرة، سنة ١٤١١هـ/١٩٩١م ص٣٣٩-٣٤٠.

(٨) السفن الإسلامية على حروف المعجم، لدرويش النخيلي، طبعة جامعة الإسكندرية سنة ١٩٧٤م، ص١٧١.